

رأى في جذور الضمائر العربية

الدكتور محمد التونجي

مع ضمائر الرفع : أنا ، أنت ، أنت ، انتما ، انتم ،
انتن ، ومكسورا مع ضمائر النصب : اياك ، اياك ،
اياكما ، اياكم ، اياكن .

« وإذا أراد العربي أن يتكلم عن نفسه لفظ
الحرف «ا» وأشار بيده الى نفسه وإذا خاطب من
امامه قال «ا» وأشار اليه كما انه اذا اشار الى
الغائب قال « ا » وأشار باصبعه
الى الخلف . ولا زالت الاشارة بالبنان تقوم مقام
الضمائر حتى الآن » .

وتأتى مرحلة أبعد مدى ، وأكثر تطورا ، بأن
أضاف حفيد هذا الانسان نونا ، سماها بعض علماء
اللغة « نون الاشارة » وآخرون « نون الوقاية » ،
ولعل تسميتها « نون الانتقال » أفضل في رأينا ، لأنها
تنقل معنى الضمير « ا » من عام الى خاص ، بما
يلحقها من ضمير متصل آخر . ولا تعطى هذه « النون »
معنى غير ما ذكرنا ، ولا قيمة لها في التعبير . ولعل
هذا الانسان اختار النون لخفتها . وكان يمكنه أن
يستعمل حرفا خفيفا آخر لو أن حنجرته أو ظروفه

أثبت علماء اللغات أن الضمائر من أقدم الالفاظ
التي نطقها الانسان معبرا بها عن نفسه ، أو عن
مخاطبه ، أو الشخص الذي يتحدث عنه . وليست
اشكال الضمائر اليوم هي نفسها التي كانت منذ مئات
السنين ، أي منذ اختراعها الاول . ذلك أن سنة تغيير
الالفاظ تابعة للمكان والزمان والبيئة والتطويع
الفيزيولوجي لحنجرة الانسان .

« ومن البديهي أن يكون الصوت « آ » اول حرف
نطقه انساننا الاول في الجزيرة العربية . ولهذا فانه
استخدمه في النداء والاستغاثة والترحم والتنبيه والحث
والضجر والتصديق والاجابة . فاذا تألم الانسان
نطق ، بلا وعى منه ، لفظة « آ » ، وإذا أراد التمديق على
أمر قال « ا » أو « آ » حسب المنطقة التي نشأ فيها .
وإذا استفهم عن أمر نطق « ايه ؟ » والهاء للوقف
طبعا ، وهكذا » .

وبعد حين من الزمان دخل هذا الحرف مرحلة
تركيب الضمائر ، وعد أسما مهما بها . الا ترى أنهم
يبدأون به في مطلع كل ضمير ؟ فتراهم يلفظونه مفتوحا

ساعدته على ذلك .

والشعراء العرب منذ الجاهلية ، غالبا ما يهملون الف « أنا » في العروض ضرورة شعرية . والواقع أن هذا خلاف لغوى حدث منذ ألف سنة ونيف بين مدرستي البصرة والكوفة ، فالكوفيون يعتبرون الألف الأخيرة من الكلمة ذاتها ، والبصريون يعدونها مدا لفتحة ، وطالت هذه المدة مع الأيام . وكان بإمكان البصريين أن يغلبوا خصومهم ، ويدحضوا رأيهم فيما لو كانوا يعرفون بعض اللغات السامية .

بل إن العبريين يلفظون الضمير « أنا » هكذا Ani ، ولعل الياء عندهم هي ياء المتكلم جاءت لتأكيد الهمزة ، وتعيين الضمير . كما أن بعض القبائل العربية تديها ، وحتى الآن ، تقول : « أنى » أو « آنى » .

وفي الانكليزية برهان على أن الهمزة اصل الضمائر اذ يقولون للضمير المتكلم : I

فاذا أراد المرء مخاطبة شخص أو اشخاص امامه لفظ الهمزة أولا ليدل على أنه بدأ بالضمير ، ثم اضاف تاء لتعيين المخاطب ، ووضع بينهما « نون الانتقال » واثرك للقارئ فرصة تحليل ذلك بنفسه :

أ + ن + ت
أ + ن + ت
أ + ن + ت + م
أ + ن + ت + ن

ثم اضاف « ميم » علامة جمع الذكور للمخاطبين ، و « نونا » علامة جمع الاناث للمخاطبات .

وتد يخالجنا الشك في أن اصل الضمائر همزة اذا نحن تذكرنا ضمير المتكلمين « نحن » . اذ أن المرء لا يجد همزة في هذا الضمير ، ولكن الرأى أنها كانت تنطق تديما : « أنو » . أى ان الهمزة ضمير المتكلم والنون للانتقال والواو للجمع ، ثم توسطتها الحاء بعد حين ، فصارت : « أنحو » . وقد ظلت تنطق في العبرية كذلك حتى اليوم فيقولون انحن : Anahnou ولها شكل آخر هو الأتدم وهو :

والذى يسهل علينا تحليل هذه النون ، وامكانية حذفها ، والبرهان على عدم أهميتها أنه يمكن الوقوف عليها « للانتقال » في بعض اللغات السامية كالعربية الشمالية والحبشية والسبئية من عربية الجنوب . ويمكن ادغامها كذلك في لغات أخرى كالعبرية والعبرية والآرامية والآشورية والاوكرائية فيقولون attâ بدلا من « أنت » ، و att بدلا من « أنت » . وتعلمون في مسألة التجويد أن النون تدغم ، ويقال لها « نون بغنة » . فالمعربى الذى يصادف التركيب « ومن يفعل » غانه ، ولا شك ، سيدغم النون طواعية ويقرأ : « وميفعل » .

والمصريون لازالوا ينادون ابنتهم بقولهم : « اسمى يابت » ، دون أن يلفظوا النون ، اللادتيون في سورية (وهم سكان منطقة اوكرابت اصلا) يقولون اليوم : « شوك ات ؟ » من دون النون أيضا . ولم يلفظوها هكذا عبثا ، انها هذا برهان أكيد على وجود لهجة خاصة كانت عدد من القبائل العربية خاصة ، والسامية عامة تدغم حرف النون في بعض الفاظها .

وفي اللغة الزردشتية (لغة اوستا) حرفان للنون ، واحد بغنة ، وآخر بلا غنة ، ولكل واحد منها رسم خاص ، ومنطلق صوتى من الحنجرة (انظر كتابنا المجموعة الفارسية : 62) .

والانكليز عندما يريدون تنكير كلمة ما يضعون قبلها الحرف الصوتى « a » مثل : a man اما اذا كانت الكلمة النكرة مبدوءة بحرف صوتى آخر ، فانهم يضيفون بين الحرفين الصوتين المجتمعين حرف النون الخفيف ، خشية ضياع احدهما في الآخر ، فيقولون : an eye ; an arm

وما الألف بعد « نون الانتقال » في الضمير « أنا » سوى فتحة مديدة . وضمير المتكلم فى الحبشية هو « أن — ânâ » بفتح النون لا مدها

« Anou » والارامية القديمة تلفظها كذلك Ennahnan والآشورية لها لفظتان هما Aninu, Anini

ولعل بعض القراء يريد أن يباهني بسؤاله عن « هو » و « هي » وغيرهما من الضمائر المبدوءة بالهاء ، وكأنه يتصور أنه فاز بقصب السبق ، أو أنه سحب ثلاثة الأثافي من تحت القدر الذي طبخت فيه هذه اللغات . لا ، فإن الضمير « هو » أبسط من أن نتصور ، وتحليله أخف ظلا بعد أن أثبتنا الحلول العلمية للهمزة .

ذلك أن أصل « هاء » ضمائر الغائبين أيضا همزة الضمير الاول ، مكسورة أو مضمومة . والغريب أنها كذلك في الإنكليزية ، فقالوا : He للغائب المفرد المذكر ، وأضافوا على ذلك الحرف « S » للدلالة على المؤنث فقالوا : She . فالضمير العربى — فى رأينا — همزة مضمومة مدت مع الأيام ، ثم فتحت والفتحت زائدة ، وليست من الأصل فالآرامية والعبرية تقولان Hou للضمير هو « ، و He للضمير « هي » بلا حركة فى ختام الضمير ، ونحن نقول : لا اله الا هو ، من دون فتح الواو ، خاصة فى ساعات انسجام الروح مع النفس ، والإنكليز يقولون لاسم الموصول والاستفهام الدال على العاقل الغائب : Who

أما كيف صارت الهمزة هاء فالامر بسيط ، ذلك أن اللغات السامية جميعا كثيرا ما تحول الهمزة الى هاء ، ف « أل » التعريف العبرية هي « هل » وليست « ال » ، ثم لحق اللام ادغام ، فبقيت الهاء وحدها . و « هل » كذلك لغة فى « أل » عند بعض القبائل العربية . وقد ورد لدى بعض القبائل البائدة كالصنوية (نسبة الى منطقة الصفا جنوب سورية)

أن « أل » التعريف عندهم « هاء » تتلوها شدة ، والشدة عندهم دلالة على حذف اللام كالعبرية فقالوا : هجمل ويعنون الجمل ، وهشمس ويريدون الشمس . ولعل العبريين اقتبسوا ذلك عن جيرانهم الصنويين .

وهمزة الاستفهام العربية تقوم مقامها فى العبرية هاء ، وهاء النداء العبرية تقابلها همزة النداء فى العربية ، بل أن العرب استخدموا هاء فى الاستفهام عوضا عن الهمزة ، قال شاعرهم :

واتى صواحبها فقلن : هذا الذى

منح المودة غيرنا وجفائنا ؟

وتصد قائله : اذا الذى ؟ . ولا ننسى أن الهمزة والهاء من مخرج واحد فى الحنجرة .

والفعل « هراق » بمعنى صب ، يقول القاموس فيه : « وأصله أراق » وهذا يثبت أن الهاء أصلها همزة . ونحن نقول : هيا للنداء ، وأصلها أيا ، ويبيه للابل قال لها : ياياه . وهيهات لغة فى أيهات ، ويقال لها أيضا : هيهان ، وأيها ، وأيهاات ، وهياهات . والفرس يقولون للضمير هو « او » .

نصل من هذه الامثلة الى أن أصل « هو » همزة مدت ضمتها ، وأصل « هي » همزة مدت كسرتها . أما الميم فللجمع فى « هم » والنون للنسوة فى « هن » ، والالف للتثنية فى « هما » .

وخلاصة الفكرة أن أصل الضمائر السامية جميعا لفظة « ا » ، والتي دعونها « همزة » ، ثم عرتها تغييرات ، وأصابتها اضافات حتى بلغت الضمائر العربية المرحلة التى هى عليها الآن ، ولا مانع من أن تمر بها تغييرات أخرى ، تكون ضمائرنا فيها اليوم بمثابة مرحلة أخرى للتجديد والتطوير .